لورد جوزيف ليستر

Joseph Lister

٥ أبريل سنة ١٨٢٧ — ١٠ فبراير سنة ١٩١٢

كانت المستشفيات قبل أقل من مائة عام توصف بأنها أحسن قليلا من مدافن الموتى ، وكان عمل الأطباء مهددا على الدوام بنسبة مرتفعة بالتسمم الذى يودى بحياة المرضى بعد نجاح العمليات الجراحية .

كانت العبارة الغالبة فى العمليات الجراحية هى أن العملية نجحت ولكن المريض توفى نتيجة تسمم الدم ، وكانت هذه العبارة هى التى ترد على الدوام فى نشرات المستشفيات البريطانية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . كان لفظ المستشفى يثير الرعب فى نفوس الناس إذ كانت نسبة الوفيات مخيفة لمن يدخلها ، وقيل بأنه إن وصلت نسبة الوفيات لمن تجرى لهم العمليات الجراحية إلى ٢٦٪ كانت هذه النسبة تعتبر تهنئة للمستشفى ، ووصل الخوف من دخول المستشفى إلى ذروته عندما دعا الكثيرون إلى العدول عن دخول المستشفى للعلاج .

كان يعتبر أمهر الجراحين هو أسرعهم فى إنهاء الجراحة ولذلك كانت أكثر العمليات الجراحية تؤدى بنقص فى إتمامها على الوجه الأكمل .

بذلت محاولات مثيرة لتلافى كارثة تسمم الدم بعد إجراء الجراحة للمرضى ، نظفت المستشفيات من الأتربة تنظيفا دقيقا ، فتحت نوافذ المستشفى عن آخرها وبدلت الملايات والفوط كل يوم بعد غسيلها بدقة ، ولكن كل هذا لم يخفض من نسبة الوفيات بعد إجراء العمليات الجراحية .

كان الفضل للقضاء على تلك الظاهرة الرهيبة لشاب كان اسمه لا يزال مجهولا فى أوساط المشتغلين بالعلوم الطبية ، هو جوزيف ليستر ، الذى لجأ فى عمله مستندا إلى اكتشاف العالم الفرنسى لووى باستير ، وطبق لأول مرة أساليب التعقيم التى هى أساس العمل الجراحى فى الوقت الحاضر ، وأدى استعمال ليستر لمواد التعقيم فى العمليات الجراحية إلى ثورة فى العمل الجراحى .

ولد جوزيف لبستر يوم ٥ أبريل سنة ١٨٢٧ فى « أبتون لين — وست هام » من عائلة من الـ « كويكرز » (جمعية الأصدقاء) ولذلك بدأ بتلقى دروسا خصوصية دون أن يذهب إلى المدرسة ، نشأ شابا ذو ملامح رزينة ويرتدى ملابس غير ملفتة للنظر ، ومن صفاته التى تميز بها أنه كان شديد التعلق بوالديه رغما عن محيط العائلة المتزمت الذى نشأ فيه . لم يكن جوزيف طويل القامة وكان نحيفا وكانت رأسه كبيرة نوعا ما وشعر رأسه غزيرا غامقا وله لحية على جانبي وجهه . وكما هى عادة الطائفة التى ينتمى إليها (الكويكرز) كان يرتدى على الدوام معطفا أسود . كان جوزيف ذا طبيعة مرحة ومغرما بالرياضة فى الهواء الطلق ، يتقن السباحة ، وكان محبوبا من زملائه وحائزا على تقديرهم .

التحق جوزيف فى سنة ١٨٤٨ بمستشفى كلية طب الجامعة بلندن وبعد حصوله على درجة الـ M.B. Bachelor of Medicine منها سافر إلى أدنبره حيث بدأ يعمل تحت رياسة الجراح البريطانى الشهير James Syme ، ولم يكن هذا الجراح سهلا فى العمل إذ كان يطلب من الأطباء الذين يعملون تحت رئاسته أكثر مما يحتملون ، غير أنه لاحظ على الدكتور جوزيف ليستر الهدوء والصبر وأنه لا تفوته صغيرة مهما كانت . لم يمض وقت طويل حتى عين Syme جوزيف جراحا فى القسم الخاص به .

حدث مرة أن نقل إلى قسم الجراحة رجل طعن طعنة عميقة خطيرة فى رقبته وتتمثل خطورة حالته فى كمية الدماء التى نزفت من الجرح وكمية الدماء التى سيفقدها أثناء إجراء العملية . لم تكن أهمية العملية فى أنها أول عملية يجريها جوزيف ليستر مع أستاذه بل فى أهمية نتيجتها لأنه إذا توفى الرجل فسيحكم بالشنق على من طعنه . بدأ ليستر العملية ومدرجات المستشفى مملوءة بالطلبة الدارسين بينما وقف ضابطان من الشرطة على مدخل غرفة العمليات ليعرفا النتيجة . كانت مظاهر الموت على وجه الرجل المصاب من أثر الحادث . قام الأستاذ وتلميذه بإجراء العملية بدقة متناهية عرفا بها ،

وعندما بدأ وجه المريض يكتسب لونا أدرك المشاهدون بأن العملية قد نجحت ولم يتمالكوا أنفسهم من أن يصفقوا طويلا للأستاذين الطبيبين اللذين أنقذا حياة رجلين .

لم يمض وقت طويل على علاقة جوزيف بأستاذه Syme حتى قابل جوزيف Agnes إبنة أستاذه وأحبها وتزوجها فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٥٦ وكان زواجا سعيدا حتى وصفت أيامهما كلها بأنها كانت أيام شهر عسل . أصبحت Agnes أكبر مساعد لزوجها وكان جوزيف ليستر يملى عليها كافة محاضراته التى كانت تدونها بخط يدها عندما كان أستاذا للجراحة بجامعة جلاسجو من سنة ١٨٦٠ حتى سنة ١٨٦٩ .

لم يكن جوزيف ليستر قد وجد حتى الآن حلا لكارثة نتائج العمليات الجراحية فانكب على أبحاثه لمعرفة أسباب تسمم الدم وسبب الالتهابات ، وكانت أبحاثه الأولى بشأن الالتهابات ، وقدم بحثا إلى الجمعية الملكية عن « الأدوار الأولى للالتهابات » فانتخب زميلا فى الجمعية وكان عمره وقتذاك إثنان وثلاثون عاما ، ومنذ ذلك الحين عرف اسمه ، ومع أن أبحاثه لم تكن تقابل دائما بالقبول إلا أنها كانت تقابل بالاهتمام .

فى سنة ١٨٦٤ أعلن العالم الفرنسى باستير على العالم نتيجة أبحاثه ونظريته عن الجراثيم وأنها هى سبب العدوى وأن كافة أنواع التخمر والتعفن تأتى من هذه الأحياء الصغيرة جدا . يلاحظ بأنه قد مر بعض الوقت قبل أن يتنبه جوزيف ليستر لاكتشاف باستير لأنه كان منكبا على أبحاثه الخاصة ولم يكن لديه وقت فراغ لقراءة ما يكتب أو ينشر خارج بريطانيا .

كانت النظرية السائدة فى ذلك الوقت هى أن الجراثيم توجد فى الجو فقط وما أثبته باستير هو أن الجراثيم موجودة فى كل مكان حتى فى جسم الإنسان نفسه مما جعل ليستر يتجه إلى الاهتمام بحالة الجروح نفسها وليس الاهتمام بحالة الجو المحيط بها فقط وظل ليستر يصمم على الاهتمام بتنظيف المكان حول الجروح ومنع دخول أية أجسام غريبة على الجرح ، ولذلك

عمد إلى رش الأجزاء المصابة بحامض الكاربوليك طول مدة إجراء الجراحة وكان أول من صمم على استعمال فوط نظيفة على الدوام وأن يغسل الأطباء المساعدون أياديهم . ورغم كل ذلك فقد كان المرضى يموتون مثل الذباب نتيجة للتسمم الدموى . وبعد تجارب طويلة لعدة أشهر توصل ليستر إلى أن الوسيلة الوحيدة لمنع تقيح الجروح هو تطهير الجروح بصفة مستمرة حتى لا تتمكن الجراثيم من الحياة عليها وفى سبيل تحقيق ذلك بدأ باستعمال أربطة مبللة بحامض الكاربوليك أو بالكروزتوت (خلاصة القطران الألمانى) كما كانوا يسمونه فى ذلك الزمان . وكان فى شهر مارس من سنة ١٨٦٥ عندما استعمل ليستر لأول مرة حامض الكاربوليك فى عملية كسور عظام كانت تؤدى قبلا إلى تسمم الجروح .

عندما صمم ليستر بعد ذلك على تطهير كافة آلات الجراحة — هذا الإجراء الذى يعتبر فى الوقت الحاضر من الضروريات الأولية — قوبل فى أوساط المهن الطبية بالسخرية . كانت طريقته فى البداية استعمال الأحماض فى التطهير وبعد سنوات لجأ إلى التطهير بالحرارة .

كان نجاح جوزيف ليستر فى ملجأ جلاسجو باسكتلندا مثيرا . كانت نسبة وفيات من تجرى لهم عمليات فيه تصل إلى ثمانين بالمائة تقريبا يموتون بسبب تلوث الدم ومن الغرغرينة وكان اليأس من الشفاء يخيم على الجميع حتى نادى البعض بإغلاق المستشفيات . دخل ليستر إلى مكان كانت نسبة الوفيات فيه أعلى نسبة فى المملكة المتحدة وكانت المستشفى فى حى لا يوجد به أى خدمات صحية . دخل ليستر إلى عنبر كان يعتبر أسوأ عنابر المستشفى ، بدأ باتخاذ إجراءات مشددة مع المشرفين على المستشفى . رفض قبول مرضى أكثر من العدد المقرر له . بعد تسعة أشهر من استعمال ليستر لأسلوبه فى التعقيم لم تحدث حالة واحدة لتسمم الدم فى العنبر أو إصابة واحدة لمرض الحمرة أو الغرغرينة .

بالإضافة إلى أن ليستر كان جراحا عظيما فقد كان أيضا عالما مرموقا

فى علم البكترولوجيا ، وربما كان قد ورث عن أبيه اهتمامه بأن يكون الميكروسكوب وسيلة فعالة نعرفها فى وقتنا الحاضر . كان عقل جوزيف ليستر متوهجا وذهنه متوقدا ، كان يتذكر كل شىء حتى أدق التفاصيل . لم يكن متسرعا فى إلقاء محاضراته قبل أن يعدها إعداداً مفصلا مدعما بالأدلة . وكان من عادته أن يستبقى مرضاه لبعض الوقت ليبحث كل حالة بكل دقة ودون تسرع .

إذا كانت أكبر اكتشافات ليستر هى الخاصة بالتعقيم واستعماله فى غرف العمليات لأنه أدرك بأن الجراثيم المعدية تمكن أن تنتقل بطريقة طبيعية بواسطة نفس هواء غرفة العمليات فهو أيضا أول من طور أساليب تخييط الجروح ، كان يستعمل خيوطا رفيعة من الحرير وكثيرا ما كان يؤدى ذلك إلى تسمم الجرح ، وإليه يرجع الفضل فى إدخال أسلوب استعمال خيوطا من أمعاء الحيوانات التى يتمكن الجسم من أن يمتصها .

(ربما كانت المرة الوحيدة فى حياة جوزيف ليستر التى علاه فيها الغضب وكانت فى مناسبة الاحتفال بيوبيل العالم باستير السبعينى سنة ١٨٩٢ عندما قابله العلماء المجتمعون بالتصفيق الحاد الذى دل على تقديرهم البالغ له ، الأمر الذى لم يسبق له مثيل فى تقاليد جامعة فرنسية) .

فى سنة ١٨٨٣ أنعم عليه بلقب بارون ، ولكنه كان يعتبر هذا الإنعام أقل بكثير من التكريم الذى حظى به عندما انتخب رئيسا للجمعية الملكية البريطانية سنة ١٨٩٤ ، لا سيما وكانت زوجته قد توفيت فى سنة ١٨٩٣ فأصبحت الحياة بالنسبة إليه ليس فيها شىء من البهجة لصاحب هذا الفضل كله على الإنسانية ، وبالإضافة إلى هذا التكريم فقد عين طبيبا خاصا للملكة فيكتوريا .

فى سنة ١٨٩١ أنشأ جوزيف ليستر المعهد البريطانى للطب الوقائي على نسق معهد باستير فى باريس ، وقد عدل الاسم إلى « معهد ليستر » ، وفى هذا المعهد تجرى أبحاث على نماذج من الجراثيم التى يرسلها إلى المعهد أطباء من كافة أنحاء بريطانيا .

فى سنة ١٨٩٧ أنعم على جوزيف ليستر بلقب لورد ، وفى سنة ١٩٠٢ أصبح واحدا من الاثنى عشر الذين يحملون وسام الاستحقاق ، ولم يكن كل هذا التكريم بالنسبة إليه شيئا يدخل السرور والرضى إلى نفسه بعد وفاة زوجته .

جوزيف ليستر يتصف بالتحفظ والتواضع ، لم يتردد أبدا فى أن يعترف بمصادر وصوله إلى اكتشافاته ، وأن اعترافه بالدين الذى يحمله للعالم الفرنسى باستير هو تحية مثيرة قلما أبداها عالم إلى عالم آخر .

فى سنة ١٩٠٣ أصيب جوزيف ليستر بمرض لم يشف منه ، وخلال التسع سنوات التى عاشها بعد ذلك كان مقعدا كسيحا .

لم يكتب جوزيف ليستر فى حياته كتابا ، كان يعمل فى أبحاثه باستمرار وعندما لجأ إلى الراحة لم تكن هناك Agnes زوجته لتلهمه وتساعده كما فعلت فى الماضى . بدأت حواسه تضعف ، وفى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٢ — وكأنه طفل فى المهد — عندما بلغ الخامسة والثمانين — انتقل إلى جوار ربه دون أن يترك ذرية له .

طالب الشعب البريطانى بدفن جوزيف ليستر فى مقبرة وستمنستر (مقبرة عظماء بريطانيا Westminister Abbey) ولكن تبين بأن جوزيف ليستر كان قد ترك وصيته التى قال فيها بأنه وفاءاً لزوجته وتعلقه بها يريد أن يرقد بجانبها . تمت مراسم الدفن على كل حال فى الـ abbey ، كان المبنى الضخم مزدحما عن آخره ليس بأصحاب الألقاب والمناصب الرفيعة فى بريطانيا فقط بل بالبسطاء والفقراء الذين أنقذهم جوزيف ليستر من الموت أو خفف عنهم قسوة المرض وآلامه .